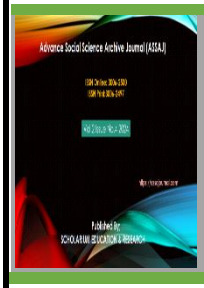

Advance Social Science Archive Journal
Available Online: https://assajournal.com
Vol.2 No.4, Oct-Dec, 2024. Page No. 1110-1123
Print ISSN: 30062497 Online ISSN: 3006-2500
Platform & Workflow by: Open Journal Systems

THE JURISPRUDENCE OF TEXTUAL INTERPRETATION BY AL-HAFIZ IBN HAJAR THROUGH THE STATEMENTS OF THE COMPANIONS (R.A) IN FATH AL-BARI

فقه التعامل مع النص عند الحافظ ابن حجررحمه الله بأقوال الصحابة رضي الله عنهم في فتح الباري

Hafiz Muhammad Ishaq	PhD Research Scholar at the Department of Hadith and its Sciences, International Islamic University Islamabad
Dr. Muhammad Anas	Assistant Professor at the Department of Hadith and its Sciences, International Islamic University Islamabad

ABSTRACT

The aim of this research is to analyze the textual approach of Ḥafiẓ Ibn-e-Ḥajar (R.A) regarding the specific treatment of Text (Naṣ) of the Prophet (PBUH) based on the saying of His (PBUH) companions (R.A).The researcher will examine the classical methodology of Ibn-e-Ḥajar (R.A) regarding his classification of different sayings of the companions by extracting the injunctions of Shariah, endorsing it and associating Shariah issues in their context. The study will contribute to the field of Science of Ḥadiṯh in the form of clarifying reasons to the viewpoint of Ibn-e-Ḥajar (R.A) of preferring a particular juristic objective over the general juristic discourse of Šhafi' School of Thought. It will also contribute to the interpretation of Aḥadiṯh of the Prophet (PBUH) in preferring the general public interest instead of strictly following the principles of interpretation of a particular scholar of Ḥadiṯh. The adopted research methodology would be Analytical and Critical.

Keywords; Jurisprudence, Textual Interpretation, Al-Hafiz Ibn Hajar, Statements of the Companions, Fath al-Bari, Hadith Commentary, Islamic Law, Exegesis (Tafsir), Companions (Sahaba), Scholarly Analysis

الكلمات المفتاحية:

الحمد لله الكريم حقَ حمْدِه، وصلاةُ الله وسلامُه على سيدنا محمد رسولِهِ وعبدِه ، وعلى آله واصحابه والتابعين لهم باحسانٍ من بعدِه، وعلينا معهم راجين من الله تعالى كريمَ عَفْوِه ورِفْدِه.قال سبحانه وتعالى:"فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ".[1]

بعثه الله سبحانه وتعالى بالهداية ودين الحقّ، فبلغ الأمانة، وأدّى الرسالة، وقدم النصيحة للأمة، وبذل جهده في سبيل الله حتى وافته المنية، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى أهله وأصحابه، ومن سار على دربهم بإحسانٍ إلى يوم القيامة.

التعريف بالموضوع:

هذه الدراسة منصبة في صميمها على فقه التعامل مع النص عند الحافظ ابن حجر رحمه الله بأقوال الصحابة رضي الله عنهم في الكتاب " **فتح الباري شرح صحيح البخاري** " ، يتعرض فيه الباحث لمنهج الحافظ ابن حجر رحمه الله في التعامل مع الحديث، من حيث عنايته بفهم النص بأقوال الصحابة رضي الله عنهم في استنباط الأحكام والتوثيق أو تفسيره، ومدى مراعاته للأصول والقواعد

المعتمدة عند أصحاب الفن، ويناقش ذلك تحليلياً ونقدياً. وتحليل منهج الحافظ ابن حجر في التعامل مع النصوص الحديثية وإظهار عمق فقه الحافظ ابن حجر في التعامل مع النصوص الحديثية، وتبيان دوره في بناء الفهم الصحيح للنصوص من خلال أقوال الصحابة، مع التأكيد على أصالته العلمية والالتزام بقواعد المنهج النقدي.

التمهيد:

التعريف بالحافظ ابن حجر رحمه الله

اسمه ونسبه

"إسمه "أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن حجر الكناني العسقلاني الأصل الشافعي المذهب المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة".[2]

والكناني نسبة إلى قبيلة كنانة، وقد أثبت هذه النسبة معظم المؤرخون الذين ترجموا له ولوالده، منهم شمس الدين السخاوي[3]،وتقي الدين المقريزي[4]، وبدر الدين الشوكاني[5]، وابن تغري بردي[6]، وذكرها ابن حجر بنفسه في ترجمته لأبيه، وعم أبيه[7].

والعسقلاني: هذه نسبة إلى عسقلان، وهي مدينة تقع على ساحل بلاد الشام في الأراضي الفلسطينية، ومنها ينحدر أصل أجداده.

والشافعي:"نسبة إلى مذهب الإمام الشافعي رحمه الله في الفقه الإسلامي، ويُعزى ذلك إلى ابن حجر لتخصصه في هذا المذهب، وتعليمه، والإفتاء وفقًا لأصوله، إضافة إلى توليه القضاء بناءً على أحكامه".

كنيته ولقبه :

"كان يُلقب بشهاب الدين، ويُكنى بأبي الفضل، وهي كنية أطلقها عليه والده، تشبيهًا له بالقاضي المكي أبو الفضل محمد بن أحمد بن عبد العزيز العقيلي، وأطلق عليه شيخه العراقي، والعلاء بن المحلّى كنية "أبو العباس"، كما لُقِّب أيضًا بـ"أبو جعفر"[8]. أما شهرته فهي كنية ابن حجر ، وقد اختلفت المصادر في اعتبار "ابن حجر"لقباً أو اسماً".

قال الإمام السخاوي :"فيه اختلاف،هل هو اسم أو لقب؟ فقيل: فقيل إنه لقب لأحمد الأعلى في نسبه، وبعض العلماء يقولون إنه اسم لوالد أحمد المذكور"[9].

وذهب ابن العماد،[10] وابن تغري بردي[11] إلى" أن ابن حجر رحمه الله يُنسب إلى "آل حجر"، وهم قوم يسكنون على جنوب بلاد الجريد، وتحديدًا في منطقة قابس التي تقع في تونس حاليًا."

مولده ونشأته

ولد الحافظ ابن حجر رحمه الله في شعبان سنة 773 هـ ،في مصرفي منزل كان يقع على شاطئ النيل قريب من دار النحاس والجامع الجديد ،[12] واختلف المؤرخون في يوم ولادته، فقال السخاوي:"أنه ولد في يوم الثاني وعشرين من شعبان"[13]، وتابعه ابن تغري بردي في المنهل الصافي،[14] وقال :" ولد ابن حجر فِي ثَانِي عشر شعْبَان"[15] وتابعه ابن العماد الحنبلي[16]، وكذلك تابعه الشوكاني[17].

شيوخه

للحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله العديد من الشيوخ في القراءات والفقه وأصوله وفي الحديث النبويﷺ،

فمن شيوخه في الفقه وأصوله[18] :

((فمنهم سراج الدين البلقيني (724 - 805هـ)، لازمه ابن حجر مدة، وقرأ عليه عدة أجزاء حديثية، وحضر دروسه الفقهية، وقرأت عليه كتاب الروضة، ودلائل النبوة، والمسلسل بالأولية

وابن الملقن (723 - 804هـ)، قرأ عليه جزءا كبيرا من شرحه على المنهاج، وأجاز ابن حجر، وقرأ عليه السادس والسابع من أمالي المخلِّص، والمسلسل بالأولية، والجزء الخامس من مشيخة النجيب.

الأبناسي، (725 - 802هـ)، كانت ملازمته له بعد سنة 790 هـ، قرأ عليه منهاج الطالبين وعمدة المفتين للنووي، وجزءا من سنن الترمذي والمسلسل بالأولية.

ومنهم ابن القطان المصري (730 - 813هـ)، كان يحضر دروسه في الفقه وأصوله واللغة والحساب، وقرأ عليه الحاوي الصغير، وأجازه، وكان أول شيوخه في الفقه.

وعز الدين بن جماعة (749 - 819هـ)، لازمه من سنة 790هـ حتى وفاته، وأخذ عنه أصول الفقه، وقرأ عليه شرح منهاج البيضاوي، وجمع الجوامع، والمختصر الأصلي لابن الحاجب، وكان ابن حجر يُثني عليه))

ومن شيوخه في الحديث النبوي:[19]

((فمنهم عبد الرحيم العراقي (725 - 806هـ)، لازمه ابن حجر عشر سنين، منها أثناء رحلته إلى الشام، وقرأ عليه العديد من المسانيد، وسمع منه ألفيته المعروفة بألفية العراقي.

ونور الدين الهيثمي (735 - 807هـ)، قرأ عليه قرينًا للعراقي، ومما قرأ عليه مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، وجزءا من مسند أحمد، وزوائد المسند.

وجمال الدين بن ظهيرة (751 - 817هـ)، أول شيوخ ابن حجر في الحديث، التقى به وهو ابن اثنتي عشرة سنة 785 هـ في مكة، درس عليه عمدة الأحكام.

وفاطمة بنت المُنَجَّا التنوخية (712 - 803هـ)، قرأ عليها كتاب الأوائل لابن أبي شيبة، والأطعمة للدارمي السمرقندي، و«بر الوالدين» للبخاري، و«القناعة» و«العزلة والانفراد «لابن أبي الدنيا، وغيرها من الكتب.

وفاطمة بنت محمد بن عبد الهادي المقدسية (719 - 803هـ)، قال ابن حجر:"قرأت عليها الكثير من الكتب والأجزاء بالصالحية، ونعم الشيخة كانت."،[20] ومما قرأ عليها الإيمان لابن منده، والتفسير المأثور عن مالك بن أنس، والدعاء للمحاملي، والسنن المأثورة للشافعي، والرحلة للخطيب البغدادي، وسجدات القرآن لإبراهيم الحربي، وغيرها.

وعائشة بنت محمد بن عبد الهادي المقدسية، أخت فاطمة، قال عنها ابن حجر» :وكانت سهلة في الإسماع، سهلة الجانب))

تلاميذه

كثر تلاميذ لابن حجر رحمه الله، وذكر السخاوي اسمًا من تلاميذه ممن أخذ عنه دراية ورواية، ومن أشهر تلاميذه:[21]

((شمس الدين السخاوي، برهان الدين البقاعي، زكريا الأنصاري، ابن الخضيري،التقي ابن فهد المكي، الكمال بن الهمام، قاسم بن قطلوبغا، ابن تغري، أبو ذر ابن البرهان الحلبي، ابن مزني، ابن الشحنة، ابن خطيب الناصرية، ابن الغرابيلي، زين الدين رضوان، تغري برمش بن عبد الله، أبو إسحاق بن درباس، نفيس الدين العلوي الكلوتاتي، البدر ابن التنسي، شهاب الدين البوصيري، محمد بن ناصر الدين السعدي الحنبلي، أحمد بن محمد بن عبد الله بن كحيل، شمس الدين ابن حسان، شهاب الدين ابن الأخصائي، ابن قوقب، شهاب الدين المنوفي، الشهاب التروجي، الشهاب الإشليمي، عبد الأول المرشدي، الشرف الطنوبي، إبراهيم الطباطبي، المحب البكري، نعمة الله الجرهي، ابن الصيرفي، فخر الدين التليلي، ابن بصال، أبو الوفا الصالحي، ابن أبي شريف، ابن قاضي عجلون، البلبيسي المقدسي، السراج بن برهان الدين الجعبري، برهان الدين بن زين الدين الخضر)).[22]

مرضه ووفاته

أصيب الحافظ ابن حجر بالمرض في شهر ذي القعدة عام 852هـ،[23] غم مرضه، استمر الحافظ ابن حجر في القيام بأعماله وحضور مجالس الإملاء وهو ضعيف الحركة. كان يخفي مرضه عن الناس، وكان الأطباء يخشون أن يُعطى مسهلًا بسبب سنه، فأُشير عليه بتناول "لبن الحليب"، فشعر بتحسن بسيط وزيادة في النشاط. لكن الألم عاد وزادت آلام معدته، ولم يتمكن من أداء صلاة الأضحى التي وافقت يوم الثلاثاء، رغم أنه لم يترك صلاة الجمعة أو جماعة، صلى الجمعة التي تلت العيد وكان آخر ما سمعه كتاب فضل ذي الحجة لابن أبي الدنيا يوم عرفة، ثم توجه إلى زوجته الحلبية، وهو يشعر بقرب موته، فاعتذر عن انقطاعه عنها، وطلب رضاها، وكان يقول:"اللهم حرمتني عافيتك، فلا تحرمني عفوك"، ثم ينشد:

ثاءُ الثَّلاثينَ قد أوهت قُوى بَدَني فكيف حاليَ في ثاء الثمانينا[24]

زاد مرضه وأصبح أكثر شدة، وتوالى حضور الأطباء لزيارته. كما جاء لعيادته العديد من الناس مثل الأمراء والقضاة والعلماء والطلاب. من الذين حضروا: الأمير دولات باي، والقاضي ولي الدين السفطي، والبدر العيني، والقاضي سعد الدين بن الديري. في

يوم الثلاثاء 14 ذي الحجة، اشتد عليه المرض، وأصبح يصلي الفروض وهو جالس، وترك قيام الليل. ثم بدأت نوبات الصرع تزداد من يوم الأربعاء حتى توفي ليلة السبت في آخر أيام شهر ذي الحجة سنة 852هـ[25] .

اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ وفاته، كما اختلفوا في تحديد يوم ولادته. لكنهم اتفقوا على أن وفاته كانت ليلة السبت من شهر ذي الحجة، ومع ذلك اختلفوا في تحديد أي سبت كان، فبعضهم قال إن وفاته كانت في الثامن والعشرين من ذي الحجة، بينما قال آخرون إنها كانت في التاسع عشر منه[26]، وذهب فريق ثالث إلى أن وفاته كانت في الثامن عشر من ذي الحجة.[27]

المبحث الأول: عن الكتاب فتح الباري شرح صحيح البخاري

المطلب الأول: التعريف بالكتاب" فتح الباري شرح صحيح البخاري " ومنزلته العلمية

كتاب"فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله" ، هو من أهم الشروح في المكتبة الحديثية مطلقا، وهو أفضل شرح لصحيح البخاري، الذي اعتنى العلماء به قديما و علماء العصر،كونه أصح كتب السنة التي فيها عديدة من العلوم ، ويعد هذا الكتاب من أنفعها وأجودها.

المطلب الثاني: قيمة الكتاب العلمية

يعتبر "فتح الباري شرح صحيح البخاري" من أجل تصانيف الحافظ ابن حجر رحمه الله وأكثرها شهرة، وهو شرح لصحيح البخاري ولا يقاربه شرح سواه على الإطلاق، ولو لم يكن للحافظ ابن حجر إلا هذا الكتاب، لكفاه فخرا ودلالة على علو قدره في الفهم والتحقيق من العلوم، وعلى رفيع رتبته في الحديث وعلومه، بل في فنون العلم الأخرى أيضا، وذلك لما احتواه من فوائد متنية وإسنادية وأحكام فقهية وأصولية، ونكت بيانية ونحو ذلك، و على هذا فهو من المراجع الأساسية في الحديث ابتداء، وفي شتى فروع العلوم الشرعية.[28]

ولم يُر في شروح الحديث أفضل ولا أجمل من فتح الباري، فقد منح الله مؤلفه سعة من العلم وقوة في الحفظ والفهم، وبراعة في الاستنباط والاستدلال، فصار شرحه كنزاً ثميناً، لجأ إليه أهل العلم وطلابه ليتناولوا منه ويستفيدوا ، وقد اهتم الحافظ بمؤلفه هذا اهتماما بالغا، وأخذ منه جهداً شاقاً و مضنياً، حيث استغرق في شرحه مدة طويلة قاربت الثلاثين عاماً، يزينه بالفوائد والنكت الجميلة.[29]

حيث بدأ الحافظ ابن حجر بكتابة المقدمة "هدي الساري" في عام 813هـ ، ثم شرع في شرح الصحيح في أوائل سنة سبع عشرة وثمانمائة 817هـ على طريقة الإملاء، وانتهى من الكتابة في أول يوم من رجب سنة اثنين وأربعين وثمانمائة 842هـ ، واستمر بعد ذلك في إضافة تحسينات وتعديلات حتى قبل وفاته بفترة قصيرة[30]. و هذا يدل على مدى جودة الفتح ودقته، حيث قام الحافظ بمراجعته وتنقيحه بعناية حتى أخرجه في صورته النهائية التي بين أيدينا.

المطلب الثالث: منزلة الكتاب "فتح الباري".

صرح العلماء أن صحيح البخاري لم ينل شرحًا بمثل شرح الحافظ ابن حجر، لا قبلَه ولا بعدَه. هذا يدل على منزلة هذا الشرح وعظيم أمره، أنه لما طلب من الإمام الشوكاني كتابة شرح لصحيح البخاري قال: ((لا هجرة بعد الفتح))[31]، وما ألطف هذا الجواب لمن يدرك بلاغة التعبير وحسن المعنى.

وقال السيوطي: ((قام ابن حجر بتأليف العديد من الكتب التي عم نفعها على الناس، مثل شرحه لصحيح البخاري الذي لم يؤلف مثله أحد من قبله أو بعده)) [32]. وقد أدى الحافظ ابن حجر الدَّين الذي على الأمة في حق صحيح البخاري ،كما في كشف الظنون ، قال إمام الحرمين الجويني: ((رغم أن الأول له الحق في التأسيس والبدء، إلا أن للمتأخر الحق في إضافة التفاصيل وتحسين العمل. في البداية قد يكون هناك بعض النقائص، لكن المتأخر يقوم بتطويره وتحسينه، ليصبح هو الأحق بإتمام ما بدأه الأول))[33].

وبالفعل، اعتمد العلماء على فتح الباري في شروحهم للحديث وفي تقييمهم للأسانيد والمتون، ، مثل المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير، والشوكاني في نيل الأوطار، والسيوطي في تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، وغيرهم من الأئمة البارزين.

وقد احاط الحافظ في كتابه الفتح كلام المتقدمين حديثا وفقها وأصولاً بالإستيعاب، كما استطاع تحرير القول في اختلافاتهم، قام بتصنيف المسائل وتنقيحها، وجمع ما تفرَّق منها، وشرح غوامضها، وربط كل مسألة بجذورها، وأورد الأدلة لكل رأي بوضوح، فكان بحق هذا القول "لا هجرة بعد الفتح"، واعتمد فيه الحافظ على ثروة كبيرة من المعرفة الحديثية وفقه الدلالات اللغوية والأصولية[34]، فقد شرح وبيَّن، وعلَّق وفصَّل، وجمع ونظَّم، متقناً المقارنة بين أسانيد الأحاديث، مع إزالة الإشكالات وتوضيح الغوامض فيها، وموازنة متون الأحاديث بالجمع بينها أو الترجيح عند وجود التعارض، فهو موسوعة حديثية وفقهية وأصولية ولغوية وعقائدية وتاريخية. قيل عنه: ((لم يكن هناك شيء غريب أو غير عادي يبرر طلبه، ومع ذلك استدعى ملوك المناطق الأخرى علماءهم لطلب مشورته)).[35]

المطلب الرابع: طريقة تأليفه

اتبع الحافظ في تأليف كتابه" فتح الباري" بأسلوب الإملاء في البداية، ثم تحول إلى الكتابة بخطه وتداوله بين الطلبة تدريجياًكان يجتمع بهم أسبوعياً للمراجعة والمناقشة ، وذلك بقراءة الشيخ ابن خضر ، إلى أنه انتهى[36]، وواصل الحافظ العمل بهذه الطريقة إلى أنه أتمَّ الكتاب بخط يده في ثلاثة عشر سفراً،مستعيناً بتوفيق الله لإكمال.[37]

وقال السيوطي : ((أن الحافظ ابن حجر قد أملى أكثر من ألف مجلس في حياته، لكنه لم يذكر عدد المجالس التي اختص بها شرحه الفتح)).[38] كان الإملاء دَرَسَ بعد ابن الصلاح إلى أواخر أيام الحافظ أبي الفضل العراقي، الذي بدأه مرة أخرى في سنة 796هـ، فبذلك أحيى سنة كانت قد اندثرت.[39]

والإملاء هو إلقاء القول على سامعه[40] ، كان هذا أحد أساليب التعليم المميزة في تلك العصور، حيث يُعقد المجلس ويقوم الشيخ بإملاء المحتوى من حفظه أو من كتابه، وهو أجل أنواع السماع وأرفع طرق التحمل، لما يلزم منه من تحرز الشيخ والطالب[41] ، إذا الشيخ مشتغل بالتحديث، والطالب بالكتابة عنه، فهما لذلك أبعد عن الغفلة، وأقرب إلى التحقيق وتبيين الألفاظ، مع جريان العادة بالمقابلة بعده.[42]

قال السيوطي: ((جرت عادتنا بتخريج الإملاء وتحريره في كراسة، ثم نملي حفظا، وإذا نجز قابله المملي معنا على الأصل الذي حررناه؛ وذلك غاية الإتقان)) .[43]

وقال الخطيب : ((كان جماعة من شيوخنا يفعلونه إذا فرغ من الإملاء قابل ما أملاه)).[44]

وقال السخاوي : ((وبلغني عن شيخنا العلامة النحوي أبي العباس الحناوي، قال: كنت أكتب الإملاء عن شيخنا العراقي، فإذا جاء ابن حجر، ارتج المجلس له. وعند عرض الإملاء قل أن يخلو من إصلاح يفيده ابن حجر)) .[45]

المبحث الثاني: عناية الحافظ ابن حجر رحمه الله بذكر قول الصحابي

المطلب الأول: فهم النص بأقوال الصحابة والتابعين.

قال ابن حجر رحمه الله في هدي الساري ، مقدمة فتح الباري: "اعلم، علمنا الله وإياك، أن آثار النبي ﷺ لم تكن في زمن الصحابة وكبار التابعين مكتوبة في الكتب الجامعية أو مرتبة، وذلك لسببين :

أحد السببين: أنهم في البداية كان قد نُهوا عن ذلك، كما ورد في صحيح مسلم، خشية أن يختلط شيء من ذلك بالقرآن الكريم.

والسبب الآخر: قوة حفظهم وصفاء أذهانهم، ولأن معظمهم لم يكونوا يعرفون الكتابة."

ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وترتيب الأخبار، بسبب انتشار العلماء في البلدان، وكثرة الابتداع من الخوارج والروافض ومنكري الأقدار. ومع اتساع الوضع أصبح من الصعب التمييز بين الحق والباطل.[46]

فالحاصل أن بسبب تأخير تدوين آثار النبي ﷺ كان دافعًا لاعتماد العلماء على أقوال أو تشريح الصحابة والتابعين في شرح الحديث وفهم معانيه. فالصحابة لأنهم رأى النبيﷺ بنفسهم وهم يعلمون سبب ورود الحديث أو الواقعة و ما أراد النبيﷺ بقولهﷺ، وأما التابعين فقد كانوا الأقرب زمنًا للصحابة، الذين نقلوا عن النبي ﷺ مباشرة، واستندوا إلى الحفظ والفهم العميق. ومع ظهور البدع والحاجة لضبط الرواية، أصبحت أقوال التابعين مصدرًا رئيسيًا لشرح الحديث وحفظه من الالتباس، خاصة أنهم عايشوا التحولات الفكرية في عصرهم وسعوا لتوضيح السنة ونقلها بشكل صحيح.

المطلب الثاني: تعريف الصحابي، والطرق التي وُضعت لإثبات الصحبة:

قبل أن نتحدث عن سبب تعميم علماء الجرح والتعديل تعريف الصحابي، لابد أن نوضح معنى "الصحابي" في اللغة، وعند هؤلاء العلماء؛ حتى تظهر لنا الحقيقة كاملة:

الصحبة في اللغة: يتحقق مدلولها في شخصين بينهما ملابسة ما، أو أشخاص بينهم ملابسة كثيرة أو قليلة حقيقة أو مجازا.

يقول الله سبحانه وتعالى:" وَ كَانَ لَه ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِه وَ هُوَ يُحَاوِرُهٗ اَنَا اَكۡثَرُ مِنۡكَ مَالًا وَّ اَعَزُّ نَفَرًا"[47]

فقضى بالصحبة مع الاختلاف في الإسلام الموجب للعداوة، وقال تعالى:" وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ"[48] ، وهو المرافق في السفر أو الزوجة، ويدخل في إطلاق الآية الملازمة وغيره، ولو صحب الإنسان رجلا ساعة من نهار، أو لازمه في بعض الأسفار لدخل في ذلك؛ لأنه يصدق أن يقال: صحبت فلانا في سفري ساعة من النهار".[49]

وعليه فإن مصطلح الصحبة في اللغة لا يشترط طول الملازمة، بل يشتمل مطلق الملازمة، طالت أو قصرت.

أما عن تعريف "الصحابي" في الاصطلاح، فيقول الإمام بدر الدين الزركشي: ((ذهب الأكثرون إلى أن الصحابي من اجتمع مؤمنا بسيدنا محمد ﷺ وصحبه ولو ساعة، روى عنه أو لا؛ لأن اللغة تقتضي ذلك، وإن كان العرف يقتضي طول الصحبة وكثرتها، وهو ما ذهب إليه جمهور الأصوليين، أما عند أصحاب الحديث فيتوسعون في تعريفهم لشرف منزلة النبي)).[50]

ويقول ابن حزم:"أما الصحابة رضي الله عنهم، فهم كل من التقى بالنبي ﷺ ولو لفترة قصيرة، وسمع منه ولو كلمة أو أكثر، أو شاهد منه ﷺ شيئًا يفهمه، ولم يكن من المنافقين الذين استمروا في نفاقهم وماتوا عليه".[51]

والتعريفات التي وضعها العلماء للصحابة متعددة، لكن التعريف المعتمد هو ما ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه الإصابة في تمييز الصحابة، حيث قال:: ((وأصح ما توصلت إليه في هذا الصدد أن الصحابي هو من التقى بالنبي ﷺ وهو مؤمن به، ومات على الإسلام. ويشمل من لقيه: من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يروِ، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه ولو لم يجالسه، ومن لم يره بسبب عذر كالعُمى)).[52]

المطلب الثالث: حجية قول الصحابي رضي الله عنه :

قال أبوحنيفة رحمه الله:"إني أتمسك بكتاب الله عندما أجده، وإذا لم أجده فيه، أخذت بسنة رسول اللهﷺ والآثار الصحيحة عنه التي انتشرت في أيدي الثقات عن الثقات. وإذا لم أجد في كتاب الله ولا في سنة رسول اللهﷺ، أخذت بقول أصحابه من أريد وتركت قول من أريد، ولكنني لا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم. وإذا وصل الأمر إلى إبراهيم والشعبي والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب... فيحق لي أن اجتهد كما اجتهدوا ".[53]

وقال:" إذا بلغني عن صحابي أنه أفتى بذلك، أتبعه ولا أسمح لنفسي بأن أخالفه)).[54]

وقال أيضاً:"عليك بالأثر وطريقة السلف ، وإياك وكل محدثة ؛ فإنها بدعة ".[55]

وقال أبو يوسف : سمعت أبا حنيفة رحمه الله يقول:"إذا ورد الحديث عن النبي ﷺ من الثقات، أخذنا به، وإذا ورد عن أصحابه رضي الله عنهم ، التزمنا بأقوالهم. أما إذا كان عن التابعين، فإننا نأخذ برأيهم مع الاجتهاد فيه".[56]

وأما الإمام مالك رحمه الله فقال الشاطبي:"ولما بالغ مالك في هذا المعنى، أي اعتبار الصحابة قدوة واعتبار سيرتهم مرشدًا، جعل الله تعالى من اهتدى بهديهم واتبع سنتهم قدوة لغيره. فقد كان المعاصرون لمالك يتبعون آثاره ويقتدون بأفعاله، وذلك بفضل اتباعه لمن أثنى الله ورسوله عليهم وجعلهم قدوة".[57]

وأما الإمام الشافعي فمنصوص منه أن قول الصحابي،رضي الله عنه،حجة لنا .[58]

فقال في كتاب الأم:"عندما لا يكون الكتاب أو السنة موجودين ، فإن العذر يقع على من لا يتبع ما فيهما. فإن لم يكن ذلك، نلجأ إلى أقوال أصحاب النبي ﷺ أو أحد منهم ، ثم يكون قول الأئمة مثل أبي بكر أو عمر أو عثمان رضي الله عنهما ، إذا صار الأمر إلى التقليد، هو الأجدر بالاتباع، خاصة إذا لم نجد دلالة واضحة في الاختلاف تشير إلى الأقرب للكتاب والسنة. في هذه الحالة نتبع القول الذي تدعمه الدلالة، لأن قول الإمام يعد ملزمًا للناس. ومن لزم قوله الناس كان أشهر من مفتي فرد أو مجموعة، حيث قد يتبع الناس فتواه أو يتركونها. وأكثر المفتين يفتون الخاصة في بيوتهم ومجالسهم، ولا يهتم العامة بما قالوا كما يهتمون بما قاله الإمام. وقد وجدنا الأئمة يسألون عن العلم من الكتاب والسنة فيما أرادوا قوله، ويقبلون الأخبار المخالفة لآرائهم إذا كانت مستندة

إلى مصادر صحيحة ، ولا يترددون في الرجوع عن آرائهم تقوى لله، مع ما لهم من فضل في حالاتهم ، فإذا لم نجد عن الأئمة، فإننا نأخذ بقول الصحابة في الدين، لأنهم في موضع الأمانة، وكان اتباعهم أولى بنا من اتباع من جاء بعدهم ".[59]

أما بالنسبة للإمام أحمد، فقد كان من القائلين بحجية قول الصحابي رضي الله عنه ، وجعل الاعتماد على قول الصحابي وهو الأصل الثاني من أصول مذهبه [60]. بل إنه كان يقدم فتاوى الصحابة على الحديث المرسل.[61]

قال ابن القيم: وأئمة الإسلام جميعهم متفقون على قبول قول الصحابي.[62]

فخلاصة الأقوال كلها أن موقف علماء المذاهب من حجية قول الصحابي، حيث اتفقوا على أهمية الرجوع إلى الكتاب والسنة أولاً، ثم إلى أقوال الصحابة عند غياب النصوص. وأكدوا على مكانة الصحابة كقدوة في الدين، مع تقديم أقوالهم على أقوال التابعين والاجتهاد الشخصي عند الضرورة. جميع العلماء أقروا بحجية قول الصحابي واعتمدوا عليه كأساس في فهم الشريعة.

المطلب الرابع: منهج الحافظ ابن حجر رحمه الله بذكر قول الصحابي في فتح الباري

ابن حجر العسقلاني رحمه الله يذكر أقوال الصحابة غالبًا لتوضيح معاني الحديث، أو لتأييد فهم معين، أو لتفسير آية وردت في الحديث. وهو يستشهد بأقوال الصحابة باعتبارهم أدرى بمعاني النصوص الشرعية.وينقل أقوال الصحابة بموضوعية مع إعمال النظر والتحليل، ويعتمد على منهج نقدي يجمع بين الدراية والرواية. ومنهجه في "فتح الباري شرح صحيح البخاري "يتميز بالدقة والتفصيل، خاصة عند نقل أقوال الصحابة. وفيما يتعلق بذكر أقوال الصحابة، يمكن تلخيص منهجه في النقاط التالية:

منهج الحافظ في سبب ذكر قول الصحابي

1. **الاستفادة من أقوال الصحابة في الأحكام:**

ابن حجر يستخدم أقوال الصحابة كدليل أو مؤيد عند مناقشة المسائل الفقهية، ويستشهد بها لتقوية رأي معين.

المثال:

قال الإمام البخاري رحمه الله: "حدثنا إبراهيم بن موسى قال: أخبرنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال: أخبرني أبو بكر بن أبي مليكة عن عثمان بن عبد الرحمن التيمي عن ربيعة بن عبد الله بن الهدير التيمي قال أبو بكر: وكان ربيعة من خيار الناس، عَمَّا[63] حضر ربيعة من عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ يوم الجمعة على المنبر بسورة النحل حتى إذا جاء السجدة نزل، فسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة، قال:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا نَمُرُّ بِالسُّجُودِ، فَمَنْ سَجَدَ، فَقَدْ أَصَابَ وَمَنْ لَمْ يَسْجُدْ، فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَسْجُدْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه" وزاد نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، ((إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَفْرِضِ السُّجُودَ إِلَّا أَنْ نَشَاءَ "[64]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: " من يرى أن الله لم يوجب السجود ويحمّل الأمر في قوله "اسجدوا" على الندب أو يعتقد أن المقصود به سجود الصلاة أو السجود في الصلاة المكتوبة على الوجوب وسجود التلاوة على الندب وفقاً لقاعدة الشافعي ومن تابعه في حمل المشترك على معنييه من الأدلة التي تشير إلى أن سجود التلاوة ليس واجبًا ما ذكره الطحاوي، حيث أشار إلى أن الآيات المتعلقة بسجود التلاوة تنقسم بين ما جاء بصيغة الخبر وما جاء بصيغة الأمر، وقد وقع الخلاف في الآيات التي بصيغة الأمر، مثل آية الحج وآية النجم وآية اقرأ، هل يجب فيها السجود أم لا، فإذا كان سجود التلاوة واجبًا، لكان من الأرجح أن يتفق العلماء على وجوب السجود في الآيات التي وردت بصيغة الأمر أكثر من تلك التي وردت بصيغة الخبر.))[65]

وروى عبد الرزاق عن مطرف ((أن عمران مر بقاص فقرأ القاص السجدة فمضى عمران ولم يسجد معه"إسنادهما صحيح. ووصله عبد الرزاق من طريق أبي عبد الرحمن السلمي قال:"مر سلمان على قوم قعود فقرؤوا السجدة فسجدوا فقيل له فقال:"ليس لهذا غدونا)) وإسناده صحيح.

ووصله عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن بن المسيب:((أن عثمان مر بقاص فقرأ سجدة ليسجد معه عثمان" فقال عثمان:"إنما السجود على من استمع ثم مضى ولم يسجد))

ورواه بن وهب عن يونس عن بن شهاب بلفظ "إنما السجدة على من سمعها" مختصرا.

ومناسبة هذه الآثار للترجمة ظاهرة لأن الذين يزعمون أن سجود التلاوة واجب لم يفرقوا بين قارئ ومستمع قال صاحب الهداية من الحنفية: ((السجدة في هذه المواضع،أي مواضع سجود التلاوة،سوى ثانية الحج،واجبة على التالي والسامع سواء قصد سماع القرآن أو لم يقصداه)).

وفرق بعض العلماء بين السامع والمستمع بما دلت عليه هذه الآثار وقال الشافعي في البويطي:"لا أؤكده على السامع كما أؤكده على المستمع وأقوى الأدلة على نفي الوجوب حديث عمر المذكور في هذا الباب))[66]

القول الباحث:

هي من المسائل التي اختلفت فيها أهل العلم ، واستدلوا فيها بأفعال الصحابة رضي الله عنهم وأقوالهم. وقد تباينت آراء أهل العلم في هذه المسألة إلى قولين:

القول الأول : أنها سنة ، وهو قول الشافعي وأحمد بن حنبل رحمهما الله .قال الشافعي:" ولا ينبغي لأحد أن يترك شيئًا من سجود القرآن، وإن تركه كرهت له ذلك، ولكن ليس عليه قضاؤه لأنه ليس فرضًا."[67]

وقال ابن قدامة:"إن سجدة التلاوة سنة مؤكدة وليست واجبًا عند إمامنا ".[68]

واستدل أصحاب هذا القول بما يأتي :

أولاً :" ما رواه مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قرأ (آية) سجدة وهو على المنبر يوم الجمعةفنزل وسجد وسجد الناس معه ثم قرأها في الجمعة التالية فتهيأ الناس للسجود فقال:"على رسلكم، إن الله لم يوجبها علينا إلا إذا شئنا" فلم يسجد"[69]، ومنَعهم من السجدة وكان ذلك بحضور الصحابة رضي الله عنهم فما أنكر عليه أحد، وما نقل عن أحد منهم خلاف فهو أفقه في مغزى الشرع وأدرك بفهم الأوامر الشرعية ".[70] وهذا الحديث أيضا ذكر الحافظ ابن حجر واستدل به.

ثانياً : إن السجدة جزء من الصلاة، والصلاة التي فرضت في الكتاب ذُكرت بإجمال ثم بيّنها الحديث. فبينت السنة وعمل النبي ﷺ أن الصلاة المفروضة هي الصلوات الخمس وكل ما عداها مما يُسمى صلاة ليس فرضًا كما قال الشافعي رحمه الله:"فإن قال قائل ما الذي يدل على أنه ليس بفرض؟ قيل السجود للصلاة قال الله تعالى:"إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ... الخ ." [71]

فكان السجود الموقوف يحتمل أن يكون مؤقتًا بالعدد أو مؤقتًا بالوقت، فبين النبي ﷺ فرض الصلوات الخمس. فقال رجل: "يا رسول الله، هل عليَّ غيرها؟" فقال: "لا إلا أن تطوع." فلما كان سجود التلاوة خارجًا عن الصلوات المكتوبة أصبح سنة اختيارية فمن الأفضل عدم تركه ولكنه ليس فرضًا".[72] فقد بيّن الشافعي رحمه الله تعالى أن سجود التلاوة ليس بفرض لأن الصلوات المفروضة تم بيانها في السنة بعد أن أمرنا الله تعالى بإقامتها ولم يكن منها سجود التلاوة.

ثالثاً :ما رواه البخاري رحمه الله "عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قرأ عند رسول اللهﷺ سورة النجم فلم يسجد فيها".[73]

القول الثاني : أنها واجبة ، وهو رأي الأحناف،قال في بداية المبتدي:"والسجدة واجبة في هذه المواضع على القاري والسامع، سواء قصد سماع القرآن أو لم يقصده ".[74] واستدل أصحاب هذا القول بحديث النبي ﷺ:"السجدة على من سمعها وعلى من تلاها".[75]

وقال العيني في عمدة القارىء: "وعند الحنفية يجب على القارىء والسامع والمستمع.وإستدل صاحب الهداية على الوجوب بقوله ﷺ: "السجدة على من سمعها السجدة على من تلاها"،ثم قال كلمة على للإيجاب والحديث غير مقيد بالقصد .قال العيني هذا غريب لم يثبت وإنما روى بن أبي شيبة في مصنفه عن بن عمر رضي الله عنه أنه قال:"السجدة على من سمعها" وفي البخاري قال عثمان إنما السجود على من استمع قال واستدل أيضا بالايات فما هم لا يؤمنون وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون فاسجدوا لله واعبدوا واسجد واقترب ".[76]

خلاصة الكلام: سجود التلاوة مسألة خلافية بين أهل العلم، هي سنة عند الشافعي وأحمد بن حنبل واستدلوا بحديث عمر بن الخطاب حين قرأ سجدة على المنبر ولم يسجد أحيانًا.و قال أن السجود صلاة، والصلاة المفروضة هي الصلوات الخمس فقط.ومن حديث زيد بن ثابت: قرأ سورة النجم أمام النبي ﷺ ولم يسجد. وعند الأحناف هي واجبةواستدلوا بحديث: "السجدة على من سمعها وعلى من تلاها".و ابن حجر رحمه الله **استدل كثيرفي هذه المسألة من ألآثارو** أقوال التابعين وهي مبحثنا.

2: لتأكيد وتوثيق الحديث:

والتوثيق يكون بعرض حديث على حديث آخر مخالف له، فإذا ثبت فيه غلط؛ وذلك بمخالفته للصحيح؛ فإن هذا الحديث يحكم عليه بالضعف، أو يجمع بينها بما يكون فيه الأخذ بجميع الأدلة، وسلوك منهج النقد والكشف عن الوهم والغلط الذي قد يلحق بالرواة نجده مسلك الصحابة ، كأمثال أبي هريرة وابن عمر وعائشة ، فنجدهم يضربون الحديث بعضه ببعض عند تناقض الروايات، أو مخالفتها لما هو محفوظ عن النبيﷺ ، ونستطيع أن نمثل على هذا المنهج بما يلي:

المثال:

قال الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه: "حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال:"إِنَّ بِلاَلًا يُنَادِي بِلَيْلٍ فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُنَادِيَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ." [77]

تخريج الحديث:

رواه مالك في الموطأ [78] ، وأخرجه أحمد عن عبد العزيز بن أبي سلمة [79]، وأخرجه مسلم[80] والترمذي[81] والنسائي[82] والبيهقي[83] عن الليث بن سعد.

توثيق عائشة رضي الله عنها في الحديث:

جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تنكر على ابن عمر رضي الله عنه وتقول :((غلط ابن عمر))[84]. وهذا ما أشار إليه الزركشى في الإجابة ، إنكارا منها رضي الله عنها ، قال الزركشي: روى البخاري من حديث ابن عمر أن رسول اللهﷺ قال:((إن بلالا يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم)).[85]

وأخرج البيهقي في سننه الكبرى من جهة يعقوب بن محمد الزهري ثنا الدراوردي ثنا هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله : ((إن ابن أم مكتوم رجل أعمى فإذا أذن فكلوا واشربوا حتى يؤذن بلال، قالت: ((وكان بلال يبصر الفجر))، قال هشام: وكانت عائشة تقول: "غلط ابن عمر"، قال البيهقي : كذا قال (يقصد البيهقي رواية الدراوردي) وحديث عبيد الله عن القاسم عن عائشة أصح، قال الزركشي: يشير إلى ما أخرجه البخاري كذلك عنها [86]، موافقا لحديث ابن عمر[87].

وقد صحح الزركشي إسناد الحديث الذي أخرجه البيهقي في سننه، فقال: "واعلم أن حديث عائشة هذا الذي أخرجه (يعني الإمام البيهقي) إسناده صحيح،

وقد رواه أحمد[88] و ابن خزيمة[89]وابن حبان في صحيحه[90]، لكن لم يذكروا فيه تغليط ابن عمر، وحمله ابن حبان وابن حزم على أن الأذان كان بينهما دولا تارة يقدم هذا وتارة يتأخر.

وقد روي ابن أبي شيبة حديثا شهد لذلك، فقال: حدثنا عثمان ثنا شعبة عن حبيب قال: سمعت عمتي، وكانت قد حجت مع رسول الله ،قالت: كان رسول اللهﷺ يقول:"إن ابن أم مكتوم ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى ينادي بلال كذا أو إن بلالا ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم، قالت وكان ينزل هذا ويصعد هذا قالت: فكنا نعلق به فنقول:"كما أنت حتى تتسحر".[91]

وروى ابن خزيمة بسنده ما يتوافق مع حديث عائشة رضي الله عنها، حيث قال الأسود بن يزيد:"قلت لعائشة: أي ساعة توترين؟" فقالت:"ما أوتر حتى يؤذنون، وما يؤذنون حتى يطلع الفجر". وقالت:"كان لرسول الله ﷺ وسلم مؤذنان، فلان وعمرو بن أم مكتوم. فقال رسول الله ﷺ: إذا أذن عمرو فكلوا واشربوا، فإنه رجل ضرير البصر. وإذا أذن بلال فارفعوا أيديكم، فإن بلالًا لا يؤذن حتى يطلع الفجر." وأيضًا، عن الأسود عن عائشة قالت: "كان للرسول ﷺ ثلاثة مؤذنين: بلال، وأبو محذورة، وعمرو بن أم مكتوم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أذن عمرو، فإنه ضرير البصر فلا يغرنكم، وإذا أذن بلال فلا يطعمن أحد"[92].

ولحديث عائشة شاهد، وهو حديث أنيسة وهو بلفظ حديث عائشة رضي الله عنها:"إن ابن أم مكتوم يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا نداء بلال"[93]، ونخرج من ذلك أن الأذان بالليل كان نوائب مرة عمرو بن أم مكتوم ومرة بلال، وقال بهذا ابن خزيمة فقال : يجوز أن تكون بينهما نوب[94]، و به جزم ابن حبان في الجمع بينهما.[95]

فنلخص من ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا ينكرون الروايات التي تخالف ما عندهم من الحديث، فقول عائشة رضي الله عنها"غلط ابن عمر"،لمخالفة ما تحفظ، وهو قولها عن رسول اللهﷺ : "إن ابن أم مكتوم رجل أعمى فإذا أذن فكلوا واشربوا حتى يؤذن بلال".

فخلاصة الكلام: وقع اختلاف في حديثين، رواية ابن عمر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم:"إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم". (صحيح البخاري).

ورواية عائشة عن النبي ﷺ: "إن ابن أم مكتوم رجل أعمى، فإذا أذن فكلوا واشربوا حتى يؤذن بلال" (رواها البيهقي وأحمد وغيرهما).

كما يظهر من موقف السيدة عائشة رضي الله عنها من رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. فقد أنكرت عليه وقالت: "غلط ابن عمر"، حيث كانت تحفظ رواية مغايرة عن النبي ﷺ.

والجمع بينهما كما ذهب ابن خزيمة وابن حبان إلى أن الأذان كان يتناوب بين بلال وابن أم مكتوم، أي تارة يؤذن هذا وتارة يؤذن ذاك.وردت روايات أخرى تدعم هذا الجمع، مثل رواية ابن أبي شيبة عن الصحابية التي شهدت تناوب الأذان.

يُستفاد من قول عائشة "غلط ابن عمر" أنها أنكرت الرواية لمخالفتها ما تحفظ عن النبي ﷺ.هذا الإنكار يبرز حرص الصحابة على الدقة في نقل الحديث والعمل بما ثبت لديهم.والجمع بين الروايات هو الحل الذي رجحه العلماء، حيث أن كلاً من بلال وابن أم مكتوم كان له دور في الأذان حسب التوقيت.

وإنكار الصحابة للروايات المخالفة يعكس اجتهادهم في الحفاظ على السنة النبوية وتصحيحها وفق ما وصلهم من النبيﷺ.

2. **توضيح أوعلاقة مع النص:**

إذا كان لقول الصحابي علاقة بتفسير الحديث أو بشرح دلالته، فإنه يوضحه ويربطه بالنصوص الأخرى. وغالبًا ما يعقب بتعليق علمي يستعرض فيه الآراء الأخرى.

المثال:

قال الإمام البخاري رحمه الله:"حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله قال:"هِيَ النَّخْلَةُ"[96]

قول الباحث:

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:" ووجه الشبه بين النخلة والمسلم من جهة عدم سقوط الورق ما رواه الحارث بن أبي أسامة في هذا الحديث من وجه آخر عن بن عمر ولفظه قال:" كنا عند رسول الله ﷺ ذات يوم فقال:((إن مثل المؤمن كمثل شجرة لاتسقط لها أُنْمُلَةٌ،أتدرون ما هي؟ قالوا: "لا" قال:"هي النخلة لاتسقط لها أنملة ولا تسقط لمؤمن دعوة)).[97]

وقال النووي رحمه الله:((قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه : "ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ فقال:" هي النخلة". فذكرت ذلك لعمر، فقال: "لأن تكون قلت هي النخلة أحب إلي من كذا وكذا".[98]

وقال السفيري عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال:" فكر كل واحد من الصحابة الحاضرين إلى نوع من أنواع شجر البوادي فسار يفسرها بذلك النوع وذهلوا وغفلوا عن النخلة.قال عبد الله بن عمر: "فلما رأيت جمار النخل في يد النبيﷺوهو يأكل منه وقع في نفسي أنها النخلة، ولكن استحيت أن أتكلم عندهﷺ، وعنده الأكابر مثل أبي بكر وعمر هيبة منهم وتوقيراً لهم، فما عرف عبد الله ابن عمر أنها النخلة إلا من الجمار الذي كان مع النبي - صلى الله عليه وسلم))[99]

وقال أبو إسحاق الحويني:((ابن عمر نظر إلى أسنان القوم فوجد الكبار أمثال: أبي بكر ، وعمر ، فحمله هذا الحياء على أن لا يتكلم، يستفاد من هذا أن على الشيخ أن يطرح المسألة على الطلبة بقصد استخراج الكفاءات والمواهب)).[100]

خلاصة الكلام:

الحديث يتناول تشبيه النبي ﷺ المؤمن بالنخلة، حيث قال:" إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ". وقع الصحابة في شجر البوادي، بينما وقع في نفس ابن عمر أنها النخلة لكنه استحيا من التصريح بذلك. النبي ﷺ أوضح لاحقًا أن النخلة هي المقصودة. ووضح الحافظ ابن حجر رحمه الله حديثا بقول ابن عمر رضي الله عنه الذي رواه الحارث بن أبي أسامة والربط بينه

وبين الحديث وبيّن وجه الشبه بين النخلة والمسلم، مثل عدم سقوط الورق، وعدم ضياع دعوة المؤمن. والنووي: أشار إلى تعقيب عمر بن الخطاب الذي فضّل أن يجيب ابنه الجواب. والسفيري: وضّح أن الصحابة غفلوا عن النخلة، بينما استنبط ابن عمر الجواب من الجمار الذي أكله النبي ﷺ. والحويني: ركّز على حياء ابن عمر أمام الكبار، واستفادة العلماء من طرح الأسئلة لتحفيز الطلبة على التفكير. فكل ذلك يدل سياق قول الصحابي رضي الله عنه.

النتائج:

1. **الخلاصة العامة:**

- يُعد ابن حجر من كبار علماء الحديث، وامتاز بقدرة فائقة في حفظ النصوص ومعرفة رجال السند. وهو في الوقت ذاته فقيه وأصولي بارع، وقد تجلى ذلك من خلال القواعد والأصول التي تبناها سواء كان قد صرح بها أو أشار إليها ضمنيًا. ومع أن ابن حجر تبنى منهجًا حياديًا في كتاب "فتح الباري"، إلا أن دراسته أظهرت ميله إلى المذهب الشافعي في العديد من المسائل الفقهية.
- كان ابن حجر عالمًا متميزًا في بحثه، واعتمد على منهجية دقيقة في دراسته وشرح "صحيح البخاري"، حيث عمل على تدوين الشرح بخط يده وسمح لتلاميذه بنسخه، مما أسهم في الحفاظ على علمه ووقاه من تناقضات الروايات التي وقع فيها بعض العلماء.
- تبنى ابن حجر مبدأ التعاون الجماعي في عمله، إذ كان يملي الكتاب في مجالس علمية، مما جعله عملًا موسوعيًا محفوظًا في الأذهان والكتب. وحقق بذلك هدفه في الحفاظ على علم الحديث وإكمال ما انقطع من المراجع، معتمدًا على مصادر متعددة من بينها علم الرجال والسيرة النبوية.
- رغم حياده وتجنبه التعصب، كان ابن حجر يستفيد من كافة مصادره ومعارفه لتوسيع نطاق علمه، مما جعل شرحه لكتاب "صحيح البخاري" عملًا موسوعيًا يتجدد الانتفاع به لكل باحث وطالب علم.
- الكتاب لا يقتصر على شرح الأحاديث فقط، بل يتطرق أيضًا إلى مسائل فقهية ويمزج بين العلم الشرعي والتطبيق العملي للفقه. وقد حظي "فتح الباري" بإشادة واسعة من العلماء والباحثين.

2. **أثر "فتح الباري" في علم الحديث:**

- يُعد "فتح الباري" واحدًا من أرقى شروح كتاب "صحيح البخاري" وأهم أعمال الحافظ ابن حجر. الكتاب يتناول بالشرح الأحاديث النبوية ويسلط الضوء على مواضع الغموض، كما يحرص على إتمام النصوص المعلقة والمقطوعة.
- ابن حجر استخدم أدواته العلمية المتنوعة، مثل علم الرجال، لتوثيق الأسانيد وتحليل المرويات بعناية شديدة، كما استفاد من منصبه كقاضي القضاة وأمين المكتبة الإسلامية بمصر في إثراء شرحه.
- تعامل مع الأصول الفقهية الكبرى مثل الإجماع والقياس، وطبق القواعد الفقهية التي كان يعتبرها ضرورية لحل التعارضات بين الأدلة. وقد أبدع في محاولات الجمع بين الأدلة الشرعية وأعاد صياغة مفاهيم الفقه بما يتوافق مع هذه الأدلة.

خاتمة :لقد قدم الحافظ ابن حجر من خلال عمله "فتح الباري" شرحًا موسوعيًا لأحاديث "صحيح البخاري"، وحقق بذلك نقلًا دقيقًا للعلم الشرعي، مبينًا علاقة الحديث بالفقه والأصول. وقد اعتمد في ذلك على علمه الواسع وقدرته على الجمع بين الأدلة الشرعية والعقلية. لذا يستحق هذا الكتاب أن يظل مرجعًا مهمًا للعلماء والطلاب، وأن يحظى بعناية خاصة لدراسة منهج ابن حجر والآثار التي خلفها.

الهوامش:

---

[1] القرآن، التوبة، آية 122

[2] طبقات الحفاظ للسيوطي (1 / 552). دار الكتب العلمية - بيروت.

[3] الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر(105/1) لشمس الدين السخاوي، حققه: إبراهيم باجس عبد المجيد، بيروت: دار ابن حزم

[4] السُلُوك لمعرفة دول المُلُوك(395/3) لتقي الدين المقريزي ، حققه: محمد عبد القادر عطا ، بيروت: دار الكتب العلمية

[5] البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (1/ 87) لمحمد بن علي الشوكاني بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر

[6] المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري (2/ 22)،مراجعة: سعيد عبد الفتاح عاشور. حققه: محمد أمين، أحمد يوسف نجاتي، نبيل محمد عبد العزيز، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب

[7] إنباء الغمر بأبناء العمر(46/1) المؤلف:ابن حجر العسقلاني، حققه د حسن حبشي والناشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي مصر عام النشر:1389هـ، 1969م،عدد الأجزاء: 4

[8] تغليق التعليق على صحيح البخاري (21/1)

[9] الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام لابن حجر (105/1)

[10] شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي(9/ 395) ، حققه: محمود الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط ، دمشق، بيروت: دار ابن كثير.

[11] المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري (2/ 22)، مراجعة: سعيد عبد الفتاح عاشور. تحقيق: محمد محمد أمين، أحمد يوسف نجاتي، نبيل محمد عبد العزيز، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب

[12] الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر(101/1)

[13] المرجع السابق (104/1)

[14] المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري (2/ 17)

[15] نظم العقيان في أعيان الأعيان لجلال الدين السيوطي(ص:45)

[16] شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي (395/9)، وحققه محمود الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط (ط. 1)، دمشق، بيروت: دار ابن كثير.

[17] البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني(87/1)، المولف: محمد بن علي الشوكاني، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر.

[18] المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (206/2)

[19] الحافظ ابن حجر العسقلاني أمير المؤمنين في الحديث(144،111)

[20] قصة كتاب الإصابة في معرفة الصحابة، موقع الوراق، اطلع عليه 11 سبتمبر 2018 نسخة محفوظة 11 سبتمبر 2018 على موقع واي باك مشين.

[21] الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام لابن حجر العسقلاني(1063/3)

[22] الحافظ ابن حجر أمير المؤمنين في الحديث(326،299)

[23] الإصابة في تمييز الصحابة (111/1)

[24] الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام لابن حجر العسقلاني (1185/3)

[25] الحافظ ابن حجر أمير المؤمنين في الحديث (616)

[26] محمد بن أحمد. بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس الحنفي (268/2-269)

[27] الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام لابن حجر العسقلاني (1193/3)

[28] نزهة النظر(ص:7)، في مقدمة المحقق عبدالله بن ضيف الله الرحيلي

[29] الفوائد المنتفاة من فتح الباري لمحمد بن عبدالله العوشن(ص:4)

[30] الجواهر والدرر(675/2)، كشف الظنون(541/1)

[31] أبجد العلوم (ص:369)

[32] ذيل تذكرة الحفاظ (ص:381)

[33] البرهان في أصول الفقه (177/2)

[34] أدلة الاستنباط وقواعد الاستدلال عند ابن حجر في فتح الباري لزليخة اليندوزي (ص:10)

[35] الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (38/2)

[36] الجواهر والدرر(675/2)

[37] منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة من خلال فتح الباري لمحمد اسحاق كندو (ص:150)

[38] تدريب الراوي(582/2)

[39] الحديث والمحدثون لإبن حجر(437)

[40] فتح الباري لإبن حجر (81/1)

[41] تدريب الراوي(582/2)

[42] فتح المغيث للسخاوي(157/2)

[43] تدريب الراوي(582/2)

[44] المنهل الراوي لابن جماعة (ص:108)

[45] الجواهر والدرر (272/1)

[46] فتح الباري لإبن حجر (6/1)

[47] الكهف: ٣٤

[48] النساء: ٣٦

[49] المنهج الإسلامي في الجرح والتعديل، د. فاروق حمادة، دار طيبة، السعودية، ط 3، 1418هـ/ 1997م، ص207.

[50] البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي(4/ 301)، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، القاهرة، ط2، 1413هـ/ 1992م

[51] الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم الظاهري(5/ 86)

[52] الإصابة في تمييز الصحابة(1/ 6)

[53] أخبار أبي حنيفة وأصحابه للصيمري (10)

[54] شرح أدب القاضي (1/185-187)

[55] ذم الكلام وأهله(207/5)

[56] أخبار أبي حنيفة وأصحابه للصيمري (10)

[57] الموافقات (80/4)

[58] كتاب الأم (265/7) ، البحر المحيط (6 / 55، 60)، المحصول (564/2)، قواطع الأدلة (3/)290، الإحكام للآمدي (130/4)

[59] كتاب الأم (265/7)

[60] المدخل إلى مذهب الإمام أحمد (115- 116) ، إعلام الموقعين (30/1) ، أصول مذهب الإمام أحمد (435-436)،بدائع الفوائد 4/(32)

[61] أصول مذهب الإمام أحمد (336-339)

[62] إعلام الموقعين (4/ 123)

[63] قال البغا في تعليقه: (عما حضر ربيعة) أخبرني عن حضوره مجلس عمر رضي الله عنه (42/2)

[64] صحيح البخاري، أبواب سجود القرآن، باب من رأى أن الله عز وجل لم يوجب السجود، رقم الحديث: 1077(558/2)

[65] فتح الباري لابن حجر (558/2)

[66] المرجع السابق

[67] كتاب الأم(119/1)

[68] المغني والشرح الكبير(1/)446

[69] الموطأ(1/ 206)

[70] المغني والشرح الكبير(1/ 446)

[71] سورة النساء آية 103

[72] كتاب الأم(1/ 118)

[73] صحيح البخاري(2/ 51)

[74] بداية المبتدي(1/ 382)

[75] فتح الباري(1/ 382)

[76] المرجع السابق (66/11)

[77] صحيح البخاري، كتاب الآذان، باب الأذان بعد الفجر، رقم الحديث:620(127/1)

[78] الموطأ، كتاب الصلاة، باب الآذان في الليل، رقم الحديث: 203(392/1)

[79] مسند أحمد، رقم الحديث: 6051(123/2)

[80] صحيح مسلم، كتاب الصوم، باب بيان الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجروأن له الأكل وغيره، رقم الحديث:1092(768/2)

[81] سنن الترمذي، أبواب الصلاة، باب الآذان في الليل، رقم الحديث: 203(392/1)

[82] سنن النسائي، كتاب الآذان،المؤذنان للمسجد الواحد، رقم الحديث:638(10/2)

[83] سنن الكبرى للبيهقي، جماع أبواب المواقيت، باب السنة في الآذان لصلاة الصبح قبل طلوع الفجر، رقم الحديث:1660(380/1)

[84] السنن الكبرى للبيهقي، جماع أبواب المواقيت، باب القدر الذي كان بين آذان بلال وابن أم مكتوم ورواية من قدم آذان ابن أم مكتوم، رقم الحديث:1669(382/1)

[85] الإجابة لإيراد ما الستدركته عائشة رضي الله عنها على الصحابة للزركشي (108-109)

[86] صحيح البخاري، كتاب الآذان، باب الآذان قبل الفجر، رقم الحديث: 597(224/1)

[87] الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة للزركشي (108-109)

[88] مسند أحمد، مسند عائشة رضي الله عنها، رقم الحديث:25561(185/6)

[89] صحيح ابن خزيمة، جماع الأبواب الآذان والإقامة، باب ذكر قدر ما كان بين أذان بلال وأذان ابن أم مكتوم، رقم الحديث:406(210/1)

[90] صحيح ابن حبان، كتاب الصوم، باب السحور، رقم الحديث: 3473(251/8)

[91] مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الصوم، من كان يستحب تأخير السحور، رقم الحديث: 8940(277/2)

[92] صحيح ابن خزيمة، جماع الأبواب الآذان والإقامة، باب ذكر قدر ما كان بين أذان بلال وأذان ابن أم مكتوم، رقم الحديث407(211/1)

[93] شرح معاني الآثار، كتاب الصلاة، باب التأذين للفجر أي وقت هو بعد طلوع الفجر أو قبل ذلك، رقم الحديث:784(138/1)

[94] صحيح ابن خزيمة، جماع الأبواب الآذان والإقامة، باب ذكر قدر ما كان بين أذان بلال وأذان ابن أم مكتوم، رقم الحديث408(212/1)

[95] صحيح ابن حبان، كتاب الصوم، باب السحور، رقم الحديث:3474(252/8)

[96] صحيح البخاري،كتاب العلم، باب قول المحدث: حدثنا، وأخبرنا، وأنبأنا، رقم الحديث: 61(22/1)

[97] فتح الباري لابن حجر (145/1)

[98] شرح النووي على مسلم (153/17)

[99] المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية من صحيح الإمام البخاري للسفيري (93/2)

[100] شرح كتاب العلم من صحيح البخاري للحويني (191)